



العقل العربي 62

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل الخامس عشر

مسألة الركود العربي

5. الركود الحضاري ومراحله الخمس

إذا أردنا أن نلخص العناصر المشتركة في الآراء العربية المتعلقة بالركود الحضاري يمكننا أن نميز خمسة مراحل واضحة على الأقل. فقبل الاتصال بالغرب كان العرب، على نحو عام، غير مدركين بعد لانحطاطهم الثقافي الذي بدأ في القرن الخامس عشر. وبغياب كتب التاريخ المكتوبة بالعربية بعد نهاية العصور الوسطى، والدخول في عصر لا يعبأ فيه بالتاريخ، ركز الفخر العربي اهتمامه بدلاً من ذلك على العصر الذهبي للعرب، بينما بقيت عصور الركود التالية مجهولة على نطاق واسع. أو لا يعبأ بها. وبعد «فتح» بلاد العرب من قبل الغرب في غزو نابليون لمصر، وما تلا ذلك من اهتمام علماء الغرب بالتاريخ العربي، أدت هذه المرحلة إلى نشوء مرحلة ثانية سادت فيها قضيتان متداخلتان: كانت الأولى منهما الازدياد الذي لا بد منه في مستوى الوعي بتفوق الغرب على المستوى التكنولوجي، أما الأخرى فكانت المعلومات الغربية المتعلقة بالتاريخ العربي، بما في ذلك الركود العربي المستمر منذ نهاية العصور الوسطى. وهذه القضية إن كانت مدبرة في الأصل لهز الاعتقاد المستقر الذي دام قروناً بتفوق «دار الإسلام» على «دار الحرب» الأقل شأنًا التي يقطنها الكفار، فإن ذلك أدى إلى قذح شرارة كراهية كبيرة.

ثم تلت ذلك مرحلة ثالثة بعد أن تم استيعاب المفهوم الجديد للركود العربي وأصبح جزءاً من المدارك العامة. فبعد ركود طويل، تولد إحساس بأن ساعة النهضة قد أزفت من أجل القيام بجهد جبار لتحقيق الرقي والتقدم والتنمية والإحياء والتحديث، وكلها أهداف جاءت أفكارها مصاغة بالمصطلحات البسيطة التي حملها التغريب. وفي هذه المرحلة

الفصل الخامس عشر: مسألة الركود العربي

تم توجيه اللوم كثيرا. في ما يخص الركود العربي. إلى التأثيرات الشاقة والمنهكة لأربعة قرون من الهيمنة التركية. والتي نظر إليها كفترة من الاستغلال والقهر المستمر.

وما أن انتهت هذه المرحلة حتى تلتها مرحلة رابعة اتصفت بالتخلي عن تلك الأفكار وانقلاب مسار الفهم؛ فلم يعد الغرب نموذجا يحتذى به دون مساءلة. وأصبحت الهيمنة الغربية على الدول العربية ينظر إليها بأنها ليست غير نسخة محدثة من الاستغلال الامبريالي التركي؛ وإن كانت الدول العربية لا تزال تعاني من الركود والتخلف الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي فليس هنالك من يلقي اللوم عليه. وفق أفكار هذه المرحلة. «غير الغرب المنخرط في مؤامرات خبيثة للحيلولة دون تمكن العرب من اللحاق بالركب الحضاري». وقد وصفت هذه المرحلة بأنها تعبير عن كراهية عميقة وشديدة للغرب وإحساس بالاشمئزاز منه.

أما المرحلة الخامسة فحدث فيها تعديل ملحوظ للمرحلة الرابعة. وذلك بعد أن لم يعد للقوى الغربية أي هيمنة استعمارية على أي دولة عربية منذ حصول الجزائر على استقلالها عام 1963. وبحلول عام 1971 كانت حتى أصغر الدويلات الصغيرة في أطراف شبه الجزيرة العربية قد أخرجت كافة العوائق الأجنبية منها. صحيح أن الخطاب الموجه ضد الامبريالية الغربية لم يتوقف لكنه أصبح يبدو فارغا من المعنى شيئا فشيئا حتى بالنسبة للمستمع العربي. وتبقى قضية أخيرة يلقي عليها اللوم باعتبارها سببا لانعدام التقدم في العالم العربي. أي: الركود النسبي المستمر. إن الركود الداخلي. أو كما يفضل قادة العرب الجدد أن يدعوه: انعدام التقدم السريع بما يكفي على الجبهات الداخلية. تلقى تبعته على إسرائيل. فما دامت إسرائيل موجودة يصر العرب على أن من الواجب عليهم بذل كافة الجهود لتحرير آخر شبر من أرض يعتبرونها ملكا شرعيا لهم؛ وإلى أن يتم تحقيق هذا الهدف فإن كافة القضايا الأخرى تتخذ موقعا ثانويا. ومن جهة أخرى. كانت هزيمة العرب أمام إسرائيل. وبالأخص في حرب حزيران 1967. أقوى حافز للإصلاح شهده العالم العربي الحديث.